بها المؤرخون الغربيون في كتابة تاريخ المغرب القديم وتاريخ الجزائر على الخصوص، ومنهم الفرنسيون مثل قزال وبيكار، وستاس، وفيفري، وأنشائهم مجلات تاريخية علمية لها صبغة حدية مثل المجلة الافريقية وليبيكا وغيرهم.

ولعبت هذه المجلات التاريخية أدورا كبيرة في الكشف عن بعض العصور الماضية من تاريخنا كان يكتنفها الغموض والابهام فأصبحت هذه العصور بعد الدراسات الغربية لها يسودها شيء من الوضوح وأصبح الموزخ الجزائري لا غنى عنه للرجوع الى أعمال المؤرخين هؤلاء أي كتبهم ومجلاتهم الصادرة في العهد الاستعماري كوثائق ومراجع ضرورية رغم المظاهر السلبية التي تطبعها أحيانا.

ولا بد أن يتم سد النقص الملحوظ عن طريق تأليف دراسات بأقلام وطنية عن تاريخ المغرب القديم وتاريخ الجزائر القديم، لكي يتم ملء الفراغ الحاصل نتيجة الافتقار الكبير للدراسات التاريخية المعمقة عن تاريخ افريقيا الشمالية قديما وهناك شروط ضرورية لتحقيق هذه الأمنية ويتجلى في فتح قسم خاص باللغات الشرقية القديمة كاللغة الفينيقية واللغة العبرية وكذا دراسة اللغة الليبية القديمة التي لم يتم حتى الآن فك رموزها. ثم لا ننسى أهمية دراسة اللغتين الاغريقية واللاتينية نظرا الى أهميتها في تاريخ المغرب القديم. وقد تم الغاء اللغة اللاتينية من معهد التاريخ أخيرا، ونتمنى أن يتم إعادة النظر في هذا القرار في اطار اصلاح برنامج التاريخ لان الطالب المتخصص في تاريخ المغرب القديم لا بد أن يكون على المام باللاتينية والاغريقية، وحتى اللغات الشرقية لكي يستطيع أن يتعمق في هذا التاريخ.

الهوامش:

(1) لقد وضع الفرنسيون جرداً عاماً لما ألّفوه عن الجزائر، فكان نصيب التاريخ القديم 252، وتاريخ الوسيط والحديث 198. والتاريخ المعاصر 369. والمونوغرافيا 129. والبيبليوغرافيا 119. وفي عالم الأدب كتب الفرنسيون 241 رواية وقصة و43 مسرحية و100 مقالة نقدية و224 قصيدة شعر و25 بحثاً في الجغرافية و44 دليلاً سياحياً حول عادات الجزائريين. و58 دراسة حول منطقة القبائل. و184 دراسة عن الصحراء.

(2) بدأت تتشكل في الاونة الأخيرة نواة لمدرسة تاريخية تهتم أساسا بما قبل التاريخ والتاريخ القديم (العهود الفينيقية والقرطاجية والرومانية) في مقدمة من ساهموا بكتابتهم في هذا المجال نذكر: الأساتذة: محمد البشير شنيتي. محمد الصغير غانم، محمد الطاهر العدواني. منير بزشناتي. مليكة حشيد، مصطفى فلاح، كلثوم دحو، تومية رويني وغيرهم.

سالوستيوس وحرب يوغرطة
(دراسة تحليلية نقديـة)

محمد الهادي حارش

موضوع ملتقانا هذا ـ المدرسة الغربية وقضايا التاريخ الجزائري ـ ومصطلح المدرسة الغربية مصطلح حديث. وأنا أتناول بالدراسة موضوع «حرب يوغرطة» من وجهة نظر مؤرخ روماني، وبالتالي ربما يتبادر الى الأذهان من الوهلة الأولى أنه خارج موضوع المدرسة الغربية، لكن لو تمعنا جيدا فيما كتبه المؤرخون الاغريق والرومان لا حول المغرب القديم فحسب، بل حول الشرق كلـه، لوجدنا أن المدرسة الغربية حديثة كمصطلح، وقديمة قدم التاريخ كفكر، وتكفينا نظرة على كتاب بلوتارخوس[1] (الاخلاقيات Moralia، الذي يحتوي على جزء سماه: تحيز هيرودوت (De malignitate Hērodotis) اتهم فيه أبا التاريخ بالميل والتحيز الى البرابرة (الشرق) وأتهمه بالاجحاف، ذلك لانه لم يكن متحاملا على الشرق، بل نقول أنه لم يظهر تحامله على الشرق، وتبجحه في شعوره القومي[2]، مثله مثل غالبية المؤرخين الاغريق والرومان، خاصة الذين يستهدفون وراء كتاباتهم تمجيد الأمة الرومانية، واظهار قوتها وفضلها، وبالمقابل اعتبار كل الشعوب والأمم الأخرى همجا، لا دين ولا ملة لهم، جبلوا على المكر والخديعة، ونذكر من هؤلاء المؤرخين على سبيل المثال لا الحصر تيتوس ليفيوس وسالوستيوس. وربما كان هذا هو السبب وراء اختياري لكتاب سالوستيوس كموضوع بحث لهذا الملتقى.

والسبب الثاني ان هذا الكتاب، يعد المصدر الأساسي لهذه الحرب، نهلت منه المدرسة الغربية بدون تبصر أو تحليل – عن قصد – في أحيان كثيرة، أو لأنها لم تجد البديل في أحيان أخرى.

أما عن محتوى الكتاب فسالوستيوس يبدأه بمقدمة فلسفية مطولة، تحدث فيها عن الأخلاق والفضيلة والطبيعة البشرية والخير والشر والشهرة والعظمة والمجد والخلود ، والعفة والشرف والاستقامة، ثم عن أسباب اختياره لحرب يوغرطة، ومكانة هذا الأخير ضمن العائلة الماسيلية ، وعن ظروف تبنيه من طرف مكيبسا (مكوسن) ، ثم صراعه مع شقيقيه (بالتبني) اذربعل وهيمبصال، واستيلائه على السلطة ، ثم أطوار هذه الحرب ، ونظرا لسعة الموضوع سأكتفي في هذه الدراسة بتسليط الأضواء على ثلاث نقاط في الكاب هي:

1 – المقدمة وعلاقتها بموضوع حرب يوغرطة.

2 – فكرة التبني.

3 – فكرة الرشوة، وبسبب تشعب هذه الفكرة وكونها ربما المحور الذي يرتكز عليه الكتاب، اكتفي بمناقشتها في خمس مواضع فقط على أن أعود الى الموضوع في دراسة لاحقة أوسع وأشمل.

1 – علاقة المقدمة بموضوع «حرب يوغرطة»:

يمكننا القول وبدون تردد أن المقدمة التي وضعها سالوستيوس لكتابة «حرب يوغرطة» لا صلة لها بموضوع الحرب ، وأن صلتها بحياة سالوستيوس أوثق وأكبر من صلتها بموضوع الحرب وهو ما سنعمل على تبيانه في الصفحات الموالية ، وذلك بالتعرض الى بعض الجوانب من حياة سالوستيوس والظروف النفسية التي كان يعيشها عندما بدأ في تأليف هذا الكتاب، بعد أن تجاوز الأربعينات من حياة مليئة بالطموحات والانتكاسات.

ينحدر سالوستيوس (كايوس كريسبوس 86–35 ق.م.) من عائلة ثرية لكنها تنتمي الى الطبقة العامة، توجه الى روما بحثا عن الشهرة والمجد، وعمل في نفس الوقت على تخليد اسمه(3).

Tous les efforts des hommes doivent tendre à ne pas traversée la vie sans faire parles d'eux»(3).

لكن قبل كل شيء المجد الذي كان يتمناه هو المجد الذي يتمتع به، وهو على قيد الحياة:

«tout homme qui s'ingénie à être superieur aux autres êtres doi faire un suprême effort afin de ne point passer sa vie sans faire parler de lui»(4).

ولتحقيق هذه الرغبة توجه سالوستيوس الى العمل السياسي، ومال الى الديمقراطيين (بحكم انتمائه الطبقي)، وعين محاسبا (Questeur) سنة 55 ق.م.، ثم ممثلا للعامة في مجلس الشيوخ سنة 52 ق.م. لكنه سرعان ما أبعد منه بتهمة اخلاقية سنة 50، وبذلك تحطمت تجربته السياسية الأولى، لكنه بعد سنة يبدأ تجربته الثانية رفقة الدكتاتور (يوليوس قيصر) الذي أعاده الى مجلس الشيوخ سنة 49 ق.م وعيّن محاسبا للمرة الثانية(5).

وفي سنة 47 ق.م.، عينه قيصر بريتورا (Preteur). وكلفه بتهدئة جنود كامبانيا Campainie المتمردين. لكنهم أساؤوا استقباله. وفي سنة 46 ق.م.، وبعد انتصار قيصر في معركة تابسوس عينه حاكما لمقاطعة افريقيا الجديدة Africa -nova لكن الأمور لم تسر كما كان يتمناها سالوستيوس. اذ أتهم بابتزاز الولاية، ولم يخلصه من التهمة سوى تقديمه مبلغ 1200.000 سسترس لقيصر على ما يذكر ديون كاسيوس(6).

وفي سنة 45 ق.م. عاد الى روما. وفي الخامس عشر من مارس تم اغتيال قيصر، وبذلك غادر سالوستيوس الحياة السياسية دون تحقيق مبتغاه في الوصول الى منصب القنصلية(7). ويذكر في هذا الصدد أنه حتى لو عاش قيصر أكثر من ذلك لما تمكن سالوستيوس من الوصول الى منصب القنصلية. بحكم أن قيصر في سنته الأخيرة عندما كان يستعد للذهاب لمحاربة البارثيين Parthes عين القناصلة مسبقا. ولم يكن من بينهم سالوستيوس. وهو ما جعل سالوستيوس يفقد كل الثقة. وقد عبر عن ذلك بقوله: «... ان الشرف لم يعد مخصصا للاستحقاق... البعض وصلوا بالدسيسة . لكنهم لم يجدوا لا الأمن ولا الاحترام. والبعض الآخر وصلوا

بالقوة(8). كما عبر عن خيبتـه ونيته في الاقلاع عن العمل السياسي في الفقرتين الثالثة والرابعة من حرب يوغرطة:

«Mais, parmi tous ces moyens les magistratures, les commandements militaires, une activité politique quelconque ne me paraissent pas du tout à envier dans le temp présent, car ce n'est pas le merite qui est à l'honneur.»(9).

«tout jeune encore, à mes débuts, je me suis, comme à peu près tout le monde, jeté avec fogue dans la politique j'y ai éprouvé bien des déboire, au lieu de la reserve, du désinteressement. Ce spectale m'était odieux, car je n'avais pas l'habitude du mal, mais ma jeunesse, séduite par l'ambition, était faible devant de tels vices et m'y retenait et si je n'approuvais pas de mauvaise conduite des autres néanmoins un même desir des honneurs méntrainait et m'exposait comme eux, aux méchants propos et à la haine.»(10).

«Même des hommes nouveaux, qui jadis avaient l'habitude de sur passer la noblesse en vertu, recourent au vol et au brigandage plutôt qu'aux paratiques honnêtes, pour s'élever au commandements et aux honneurs: comme si la préture, le consulat et les autres dignités avaient un éclat et une grandeur propre, et ne tenaient pas le cas qu'on en fait la vertu de leur titulaire. Mais je me laisse aller à des propos trop libres et trop vifs, par l'ennui et le degout que causent les mœurs publiques.»(11).

وأدرك سالوستيوس أن الشهرة والمجد يمكن بلوغهما بغير العمل السياسي، فتوجه الى الكتابة:

«On peut conquérir l'illustration par les travaux de la paix comme par ceux de la guerre, et les héros comme leurs historiens sont nombreux à mérites l'éloge.»(12).

كما أدرك أن للكتابة منافع للجمهورية، لا يجنيها العمل السياسي، وبذلك أقلع عن السياسة، وتوجه نحو الكتابة التي اعتبرها تسلية لكنها ذات منفعة:

«Ils ne manqueront pas de penser que j'ai obeï plus à la raison qu'a la paresse en changeant de manière de vivre et que mes loisirs apporteront à la republique plus d'avantage que l'action polkitique des autres.»(13).

Une activité politique quelconque ne me paraissent pas du tout à envier dans le temps présent; car ce n'est pas le merite qui est à l'honneur.»(14).

بهذه النظرة على حياة سالوسيتيوس وبمحاولة مقارنتها بما جاء في مقدمتي: «حرب يوغرطة» و«انتفاضة كاتيلينا»، نجد العديد من نقاط التشابه بين محتواها وحياة سالوستيوس.

فسالستيوس تحدث في مقدمته لـ«حرب يوغرطة» عن الأخلاق والفضيلة، وأكد عليها في العديد من المواقع، في وقت نجده قد أبعد من مجلس الشيوخ الروماني، بتهمة أخلاقية، وقد قبض عليه ملتبسا بجريمة الزنا رفقة «فوستا» ابنة سيلا وزوجة ميلون.

عندما عيّن حاكما لأفريقيا الجديدة أتهم بالاختلاس، ولم يخلصه من التهمة غير تقديمه مبلغا ماليا لقيصر. وهذا ربما ما جعل سالوستيوس يتحدث عن الأمانة والاستقامة، ثم الرشوة لأن سالوستيوس أنغمس فيها.

تحدث سالوستيوس عن امكانية تحقيق الشهرة والعظمة، بعيدا عن السياسة، وهذا بعد أن أرتمى فيها وخاب:

«Tout jeune encore à mes début, je me suis comme à peu près tout le monde, jeté avec fougue dans la politique j'y ai éprové bien des déboires.»(15).

«Une activité politique quelconque ne me paraissent pas du tout à envier dans le temps présent car ce n'est le merite qui est à l'honneur.»(16).

تلك هي بعض الجوانب المتعلقة بحياة سالوستيوس في مقدمته لحرب يوغرطة، ولا نستبعد أن يكون لاختيار سالوستيوس «حرب يوغرطة» علاقة مماثلة، لكن ربما

أقل جلاء. فسالوستيوس مثلا يذكر أن سبب اختياره لهذه الحرب هي: أولا قساوتها وشراستها، لدرجة أن النصر فيها ظل لمدة غير مؤكد. وثانيا لأنه، لأول مرة تسجل مقاومة لاستبداد النبلاء، وهي المقاومة التي أحدثت انقلابا عاما...»[17]. ولا نستبعد أيضا أن يكون هذا السبب الأخير هو الدافع الأساسي الى تأليف الكتاب، بهدف مواصلة الهجوم على النبلاء. الذين وقفوا في طريقه وطريق الطبقة العامة في العديد من المناسبات. كما يمكننا أن نشير الى حادثة أبعاده من مجلس الشيوخ الروماني سنة 50 ق.م.. ففي هذا الوقت الذي أبعد فيه سالستيوس من المجلس كان زميله في تمثيل العامة كيريون Curion يتابع أمام الشعب المطالبة، بسقوط يوبا الأول وحظر مملكته[18]. وفي هذه القضية تجديد لموقف العامة من مملكة نوميديا، هذا الموقف الذي لم يحد عنه سالوستيوس في كتابه «حرب يوغرطة». وهو اعتبار «نوميديا» جزءا من ممتلكات الشعب الروماني.

اذن يمكننا القول أن سالستيوس عندما هم الى تأليف هذا الكتاب، وضع نصب عينيه هدفا لم يحد عنه إطلاقا وهو مهاجمة النبلاء. وابراز دور ممثلي العامة في مجلس الشيوخ. في الدفاع عن الأخلاق والشرف والمصلحة العليا للبلاد أمام النبلاء. الذين لا هم لهم سوى اللهث وراء المصالح الشخصية[19].

2 ـ فكرة التبني:

في معرض حديث سالوستيوس عن ظروف تبني مكيبسا (مكوسن) ليوغرطة. يذكر بعد أن استعرض خصال يوغرطة المتمثلة في حدة الذكاء والشجاعة. أن مكيبسا استبشر خيرا بهذه الخصال بادئ الأمر. لكن تقدمه في السن وصغر ابنيه (اذربعل وهيمبصال) جعله ينقلب على يوغرطة. الذي أصبح يرى فيه خطرا على ولديه. وبدأ يفكر في طريقة تخلصه منه. فكر أولا في اغتياله. لكن خشي أن يتسبب ذلك في ثورة النوميديين[20]، وأعطته حرب نومانس الفرصة لعرض يوغرطة للخطر، فأرسله على رأس فرقة من النوميديين، عساه يذهب ضحية شجاعته واقدامه[21]، لكن «تجري الرياح بما لا تشتهي السفن»، فقد استطاع يوغرطة بما أظهره من فطنة وتواضع أن يكسب ود وصداقة كثير من الرومان، وكذلك ثناء

القائد الروماني سكيبيو ايميليانوس، الذي كلفه ـ بعد هذه الحرب ـ بتبليغ الرسالة التالية إلى مكيسبا:

«... لقد أظهر يوغرطة في حرب نومانس شجاعة منقطعة النظير، هذه بشرى ازفها اليك، ولا شك أنها ستغمر قلبك بالسعادة، ليوغرطة من الخصال ما جعله عزيزا لدينا، وسنعمل كل ما في وسعنا ليشاطرنا مجلس الشيوخ والشعب الروماني هذا الاحساس، باسم صداقتنا أقدم لك أطيب التهاني، لك في يوغرطة رجل جدير بك، وجدير بجده مسينيسا...»[22].

بهذا التسلسل قدم سالوستيوس الأحداث بهدف الوصول الى أن هذه الرسالة كانت بمثابة إيعاز من سكيبو الى مكيبسا بضرورة تبني يوغرطة واشراكه في الحكم، اذ أورد أنه بعد تلقي مكيبسا لهذه الرسالة غيّر رأيه في يوغرطة، وفورا تبناه، وأوصى له بالعرش مثله مثل أبنائه:

«Cette lettre lui ayant confirmé ce que le bruit public lui avait appris, Micipsa fut tout troublé à l'idée du merite et du crédit de son neveu, et il modifia sa manière de voir, il s'attacha à dominer JUGURTHA par ses bien faits, l'adopta sans tarder, et par testement fit de lui son heritier, concurrement avec ses fils.»(24).

لكن إذا حاولنا تحليل ما جاء في هذه الفقرة وما بعدها، سنجد أن سالوستيوس قد وقع في متاهات لا حصر لها:

إذ من المعروف تاريخيا ان مكيبسا توفي سنة 118 ق.م، ويفهم من الحديث الذي دار بين الاشقاء الثلاثة بعد الانتهاء من مراسيم الدفن، حسب رواية سالوستيوس، ان اقتراح يوغرطة بالغاء كل التدابير والقرارات التي اتخذها مكيبسا في الخمس سنوات السابقة لوفاته، قد أحرز على رضى هيمبصال: «بكل طيبة خاطر، أجاب هيمبصال، بما أن مكيبسا تبناك منذ ثلاث سنوات فقط، ليسمح لك بالوصول الى العرش..»[25]. معنى هذا أن يكون التبني قد وقع على أبعد تقدير سنة 121 ق.م.. لكن سبق لسالوستيوس أن ذكر أن مكيبسا تبنى يوغرطة فور عودته من نومانس. بعد تلقيه رسالة سكيبيو ايميليانوس. لكن اذا علمنا أن حرب نومانس

انتهت بسقوط المدينة في يد سكيبيو سنة 133 ق.م. ،[26]. وما دام التبني قد وقع فور عودة يوغرطة من نومانس، فالمفروض أن يكون في ثلاثينات القرن الثاني ق.م.. على الأقل، أي باثني عشر سنة تقريبا، وليس بثلاث سنوات قبل وفاة مكيبسا. والخطأ هنا واضح عند سالوستيوس الذي قلص فترة الخمس عشرة سنة التي تفصل بين سقوط نومانس ووفاة مكيبسا الى ثلاث سنوات. ورغم ان قزال[27] يرى ضرورة الفصل هنا بين قرارين، لمكيبسا بشأن يوغرطة: (1) التبني و(2) تسجيله في الوصية كوريث للعرش، يكون بالتالي أحدهما مؤرخاً بـ 133 ق.م.، والآخر بـ 120 ق.م.، لكن نص سالوستيوس واضح لا يحتاج إلى تأويل. وحتى إذا افترضنا هذا التأويل فهو لا جدوى منه لسببين:

1 _ اذا افترضنا ان التبني حدث سنة 133 ق.م. فهو وحده يمكن يوغرطة من الوصول الى الحكم وفق التقاليد النوميدية. وبالتالي لا حاجة للوصية.

2 _ اذا افترضنا ضرورة هذه الوصية فيكون أيضا مكيبسا لم يتبن يوغرطة. نزولا عند رغبة سكيبيو ايميليانوس. كما يذهب الى ذلك جلّ المؤرخين[28]. لأن هذه الوصية. كما رأينا. تعود الى سنة 120 ق.م. وكان سكيبيو ايميليانوس قد توفي منذ تسع سنوات (توفي سنة 129 ق.م.) واعتمادا على هذا هل نستطيع أن نستبعد ما يذهب اليه جلّ المؤرخين من أن مكيبسا تبني يوغرطة نزولا عند رغبة سكيبيو. اذ واضح أن مكيبسا لم يتبن يوغرطة فور عودته من نومانس. وانما تبناه فعلا عندما اشتد عليه المرض. وشعر بدنو أجله. وهو ما أشار اليه سالوستيوس بقوله:

«Quelques années plus tard accablé par la maladie et les années et sentant sa mort prochaine...»(29).

في خضم كل هذا. هل يمكننا التحدث. هنا عن اصلاح اداري قام به مسينيسا. وأراد مكيبسا الاحتفاظ به؟

لا نستطيع الجزم في هذا الموضوع. لكن النقوش توحي بذلك. فقد عثر على نقيشة من نقوش معبد حتحور بمكثر[30]. تثبت أن الحكام الذين حكموا مكثر كانوا ثلاثة لا اثنين. كما هو في قرطاجة. وهذه النقيشة أكدتها شاهدة قبر كنتوس فيريوس روقاتوس (Q. Verrius Rogatus) التي تعطي لهذا الشخص لقب

(Triumvir) وقد استمر الحكم في مكثر، في يد هيئة ثلاثية حتى تحويل المدينة الى مستعمرة في عهد الامبراطور ماركوس أوريليوس (161_180م). ومما يلاحظ أيضا ان الاشفاط الثلاثة في النقيشة المذكورة كانوا يحملون أسماء نوميدية. ونعثر على نموذج آخر في الكونفيدرالية الكيرتية[31]، التي كان يحكمها ثلاث ولاة، وهو ما لم يعثر له بيكار[32] على تفسير.

وقد مرت كيرتا بمرحلة الحكم الثنائي[33] (Duovir)، أيام كانت مستعمرة، لكن مع تكوين الكونفيدرالية في أوائل القرن الأول بعد الميلاد، تحولت الى الحكم الثلاثي[34] Triumvir فهل يتعلق الأمر هنا باحياء عادة نوميدية، رغم أننا لا نملك ما يؤكد ذلك بصفة قطعية، غير أن العثور على نقيشتين في سكيكدة[35] فيهما ما يؤكد الحكم الثلاثي في هذه المدينة، وأيضا في ميلة التي أصبح الحكم فيها، بعد الغاء الكونفيدرالية الكيرتية ثلاثيا، كما تؤكد ذلك النقوش[36]. كما تحدثت النقوش عن ولاة ثلاثة في القل[37]. هذا كله إضافة الى اتفاق البونيقيين والرومان في اسناد إدارة المدن الى هيئة ثنائية يجعلنا نرى في الحكم الثلاثي نظاما وتقليدا خاصا بنوميديا.

3 _ الرشوة :

كتاب سالوستيوس «حرب يوغرطة» مليء بالمواضع التي تحدث فيها عن الرشوة، اخترنا منها خمسة مواضيع للمناقشة والتحليل نوجزها فيما يلي:

1 _ بعد حرب نومانس وبعد ثناء سكيبيو على يوغرطة على مرأى الجنود الرومان انفرد به ونصحه بتوثيق علاقاته بالشعب الروماني كله، وبيّن له أن العلاقات الشخصية غير كافية ونبهه الى خطورة شراء ما يملكه الشعب كله من أقلية لا ترى سوى مصالحها[38].

2 _ أثناء الصراع بين يوغرطة واذربعل أرسلت روما وفدا من عشرة أعضاء برئاسة لوكيوس أوبيميوس (L. Opimius) بهدف فك النزاع بين الشقيقين، فتم تقسيم المملكة بينهما، فحصل يوغرطة على الجزء الغربي الأكثر ثراء والأوفر سكاناً بفضل الرشوة التي قدمها للوفد، بينما حصل أذربعل على الجزء الشرقي العديم الفائدة، رغم كثرة المدن والمرافئ[39].

3 – لم يحترم يوغرطة أمر التقسيم وانقض على اذربعل وحاصره في كيرتا ، فأرسلت روما وفدا برئاسة سكاوروس (Scaurus)، لكن يوغرطة لم يبال، وواصل زحفه على كيرتا، التي دخلها وفتك بالجالية الايطالية واذربعل ، فثارت العامة في روما، ودعت الى اعلان الحرب. أرسل يوغرطة وفدا الى روما مثقلا بالهدايا والذهب، ليجنب نفسه الضربة الموجهة له، لكن وعلى أثر نزول الوفد النوميدي في ايطاليا، طلب القنصل بستيا من مجلس الشيوخ ان كان من رأيه استقبال مبعوثي يوغرطة في روما، لكن مجلس الشيوخ رد بالرفض، ان لم يكونوا آتين لوضع «المملكة» و«الملك» تحت تصرف الشعب الروماني (40).

4 – نزل بستيا في الولاية الرومانية بافريقيا، وبعد أن ضمن التموينات ، توغل في الأراضي النوميدية واستولى على العديد من الأسرى والمواقع ، لكنه باع السلم الى يوغرطة، تمت دعوة يوغرطة الى روما بهدف استنطاقه، لكن بابيوس منعه من الكلام «اللعبة معروفة – الرشوة –» مما أثار ضجة في مجلس الشيوخ.

ان اغتيال مسيو (Massiva) لم يترك خيارا لمجلس الشيوخ الذي أمر بإبعاد يوغرطة من روما، واعلان الحرب، مع تولي البينوس Sp. Albinus مهام القيادة (41).

5 – بعد دخول ميتلوس مدينة «تالة» ومغادرة يوغرطة لها، توجه هذا الأخير الى بلاد الجيتول، حيث جيّش الجيوش، وعمل على استمالة بعض الشخصيات المقربة من الملك الموريطاني «بوخوس» بالهدايا والوعود، وبفضل هذه الشخصيات ، أثر على الملك الموريطاني ، وأقحمه معه في الحرب ضد روما (42).

ففي الموضع الأول يوحي لنا سالوستيوس وكأن يوغرطة بدأ يفكر في شراء أعضاء مجلس الشيوخ منذ أيام نومانس، وهو ما نعتبره من الأحكام المسـ والأغراض التاريخية عمل بها سالوستيوس لتهيئتنا لقبول ما سيأتي من أحكام في هذا الموضوع.

أما ما ذكره في الموضع الثاني حول التقسيم فهو يتنافى والواقع التاريخي، فالمنطقة الشرقية التي اعتبرها سالوستيوس عديمة الفائدة هي أكثر ثراء وأوفر عمرانا في الواقع ، اذ استفادت من وسائل الاستثمار أكثر من المنطقة الغربية، فالمنطقة التي

حصل عليها اذربعل تضم اقليم كيرتا العاصمة الملكية، وعلى احتكاك بقرطاجة، ثم بالولاية الرومانية، وتمتد حتى السرت الكبير وتضم السهول الكبرى وسهول امبوريا والعديد من المرافئ التجارية والمدن الكبرى. خلافا للمنطقة الغربية التي ظلت ولمدة طويلة بعيدة عن مناطق التأثير والاستغلال، ولا نستبعد أن يكون سالوستيوس يضمر سوء نية ، عندما أكد انتفاع يوغرطة من حصوله على القسم الغربي، واخفاء سالوستيوس للحقيقة، يجعلنا نتساءل عن الدواعي الحقيقية التي دفعت وفد العشرة الى منح اذربعل الجزء الشرقي من نوميديا، الا يكون في ذلك ابعاد ليوغرطة الذي لا تطمئن روما الى نواياه، أما أذربعل العائد في الحال من روما بعد أن أكد تبعية مملكته وخضوعه لإرادة الشعب الروماني (43)، فلا خوف منه، ألا تكون هذه القاعدة هي التي تحكمت في التقسيم وليست الرشوة؟ فالمنطقة الشرقية الكثيرة الموانئ والمدن التي تحيط بها الحقول والمزارع كانت تقدم للتجار الرومان مجالا واسعا للنشاط والاستغلال (44) مع ما يوفره لهم اذربعل من حرية التحرك.

إذا كانت هذه القاعدة هي التي تحكمت في التقسيم فلماذا هذا السكوت عنها من سالوستيوس؟ ألا يكون لذلك علاقة بشخص أوبيميوس رئيس وفد العشرة وبأحداث سابقة جرت في روما؟ لا نستطيع الجزم في الأمر، لكننا على علم أن أوبيميوس هذا هو قاتل المصلح الشعبي كايوس كراكوس Caius Gracchus ، وبالتالي ألا يكون أوبيميوس هذا مذنبا على الأقل من وجهة نظر العامة، ويجب الانتقام منه؟! ربما كان ذلك وراء توريطه في قضية الرشوة.

أما في الموضع الثالث فكلام سالستيوس يثير العديد من التساؤلات:

أ – يفهم من كلام سالوستيوس أن يوغرطة ارتمى على أذربعل بمجرد ذهاب الوفد الروماني «بعد تقسيم المملكة ، ومغادرة وفد مجلس الشيوخ افريقيا... فجأة هاجم يوغرطة وبفرقة قوية، أراضي أذربعل.»

*«Après le partage du royaume les délegués du senat avaient quitté l'Afrique... brusquement avec une forte troupe JUGURTHA envahit son territoire.»(45).

لكن المعروف تاريخيا أن التقسيم تم أواخر سنة 117 ق.م. والاختلاف بين

الشقيقين يعود إلى سنة113ق.م من هنا نفهم أن سالوستيوس تجاهل أربع سنوات، ولا نستبعد أن يكون ذلك عن قصد، لماذا؟ لا ندري، لكن ربما ليبين لنا طموح يوغرطة الزائد ولهفته على تلطيخ الشرف الروماني.

ب ـ اذا كان بستيا قد تلقى فعلا تلك الأوامر القاضية بعدم القبول بأي شيء غير خضوع الملك لإرادة الشعب الروماني[46]، فقد احترنا لماذا وقّع معاهدة السلم مع يوغرطة وخاصة ان هذه المعاهدة جاءت بعد توغل بستيا في الأراضي النوميدية وبعد أخذ العديد من الأسرى والمواقع على ما يذكر سالوستيوس[47]. في نظر سالوستيوس ـ طبعا ـ يكون بستيا قد فضل المال على الشرف، أما الواقع فغير ذلك، اذ نجد مثلا كاركوبينو[48] يعلل ذلك باعتبارات انتخابية بالنسبة لبستيا. أما بالنسبة لمرافقه سكاوروس فيعلل ذلك ببعد نظره الى ما يترتب عن استمرار هذه الحرب من خسائر، ففضل ـ وفق تعبير كاركوبينو ـ كسبا محدودا على المغامرة في حرب لا يرى لها نهاية، فكان سوق لبدة[49] في نظره يكفي لارضاء الارستقراطية الرومانية.

جـ ـ سكاوروس (Scaurus) المرافق لبستيا والذي قدمه لنا سالوستيوس ثائرا على المرتشين في بداية الحرب، ها هو يتقبل الرشوة، ربما اعتبر هذا أمرا طبيعيا ، لكن الغريب ان سكاوروس هذا الذي تقبل الرشوة[50] سرعان ما تم اختياره ضمن الثلاثة المكلفين بالتحري في قضية الرشوة[51] وهو لغز لم نجد له حلا!

د ـ يذكر سالوستيوس ان دخول يوغرطة كيرتا والفتك بالجالية الايطالية كان وراء دعوة العامة لاعلان الحرب، ولكن الملفت للانتباه ان دخول كيرتا كان في صائفة 112، ولا شك أن الخبر وصل مباشرة الى روما، التي كانت تترقب الأمر، لكنه لم يتسبب في أي رد فعل فوري، والظاهر أن الخبر استقبل بشيء من البرودة واللامبالاة. وكان يجب انتظار نهاية فترة الخريف، حتى يبدأ كايوس مميوس (C. Memmius) في اثارة العامة ضد الرشوة أكثر منها ضد تقتيل الجالية الإيطالية ، لأننا لا نجد حتى في نص سالوستيوس اشارة الى تقتيل الايطاليين خاصة[52].

أما في الموضع الرابع من مواضع الرشوة فقد قدم لنا سالوستيوس احداثا مهزوزة ومتداعية من عدة جوانب:

1 ـ يوغرطة يضع نفسه تحت تصرف الشعب الروماني، وينتقل الى روما، حيث يرتكب جريمة وعوض الالقاء به في السجن يبعد من روما ليعود الى نوميديا ويتولى من جديد قيادة قواته.

2 ـ في الجهة الأخرى القنصل البينوس يجتاز البحر وكله أمل في القضاء على يوغرطة، لكنه يعود الى روما في خريف 110 ق.م.، دون أن يحقق شيئا يذكر، تاركا القيادة لشقيقه ألوس (Aulus Albinus)، ونتيجة لتعطل الانتخابات قام هذا الأخير خلال شهر يناير (جانفي) 109 بحملة على نوميديا، وفي سوثل أذاقه يوغرطة شر هزيمة. وعملا على محو اثار هذه الهزيمة ، ورد الأعتبار عاد سبيريوس البينوس (Sp. Albinus) الى افريقيا عساه يصلح ما فسد، لكنه لم يجد في افريقيا غير جيش منهار المعنويات ، غير منظم وغير قادر على القيام بأي عمل[53]، فعاد سبيريوس ثانية الى روما تاركا القيادة لشقيقه، في هذه الأحداث حادثتان تسترعيان الانتباه:

أ ـ بعد عودة سبيريوس الى روما ترك القيادة لشقيقه أولوس بصفته بروبريتورا (Propreteur) وهي صفة جديدة. وطبيعي أنه لم تكن له مهمة أخرى غير انتظار القنصل الجديد لسنة 109 ليخلفه في شهر يناير (جانفي) لكنه في هذا الشهر بالذات يقوم بحملة على نوميديا!

ب ـ بعد أن تحدث سالوستيوس على تعطل الانتخابات بسبب اثارة العامة لجدال حول القوانين الاساسية يقدم لنا فجأة ميتلوس كقنصل من نصيبه نوميديا، لكن الغريب أننا نجد سبيريوس ألبينوس ما زال يعمل بصفته بروقنصلا وهذا رغم وجود قنصل معين؛ فجند الفرق وأعاد تكوين جيش افريقيا بمساعدة الحلفاء والايطاليين[54].

وعلى ضوء هذا التناقض يمكننا القول أن الجدال الذي أثارته العامة حول القوانين الأساسية قد تسبب في تعطيل الانتخابات لسنة 109 ق.م. واستمر سبيريوس ألبينوس في منصبه بصفته بروقنصلا. وبهذه الصفة جيّش الجيوش وعاد

الى افريقيا. أما انتخاب ميتيلوس كقنصل، فكان لسنة 108 ق.م.، ومما يدعم هذه الفكرة ان حرب يوغرطة تنتهي بالقبض على الملك سنة 105 ق.م.، ووضع قنصلية ميتلوس لسنة 108 ق.م، يتماشى والاحداث التاريخية. اذ من المعروف أن ميتيلوس بقي بافريقيا سنتين[55]. فتكون من وجهة نظرنا سنتي 108ـ107 ق.م. بينما يعين ماريوس لسنتي 106ـ105، وهو ما يوافق ما ذكره فليوس باتركولوس[56] (Velleius Paterculus)، الذي يذكر أن ماريوس عاد في قنصليته الثانية ومعه يوغرطة. واذا أخذنا بتعيين ميتلوس لسنة 109 ق.م. الذي يأخذ به كثير من المؤرخين، يكون ماريوس قد بدأ حملته سنة 107 ق.م، ويكون بذلك قد بقي بافريقيا ثلاث سنوات، وهو ما يتنافى مع ما ذكره فليوس وسالوستيوس .

أما الموضع الخامس والأخير بالنسبة لهذه الدراسة فالواقع أن سالوستيوس ، الذي اعتبر الرشوة السبب الأول في اقحام بوخوس في الحرب ضد روما، قد أشار أيضا الى السهولة التي تم فيها هذا التقارب بين يوغرطة وبوخوس، وذلك لاعتبارين:

أ ـ كون بوخوس قد عرض على الرومان في بداية هذه الحرب التحالف ، ولكنهم رفضوا عرضه.

ب ـ زواج يوغرطة باحدى بنات بوخوس[57]. Bocchus

وقد اعتبر سالوستيوس هذا العامل الثاني غير ذي أهمية، بحكم أن رابطة الزواج عند النوميديين والموريطانيين لم تكن لتمتن الروابط العائلية، نتيجة تعدد الزوجات[58] . وهو في رأينا ما يخالف العادات ، فالروابط العائلية كانت دائما من أمتن الروابط عند المغاربة، رغم فكرة تعدد الزوجات التي أشِر اليها بعض المؤرخين. ولا نستبعد أن يكون سالوستيوس هنا منطلقا من رؤية الرومان لفكرة تعدد الزوجات، التي لا يحبذونها، بل نقول ينبذونها ويحرمونها، وفي هذا الاطار نتذكر حادثة زواج يوليوس قيصر من كليوباترة، وهو الزواج الذي لم يعترف به المجتمع الروماني، واعتبر ابنها قيصرون ـ فيما بعد ـ ابنا غير شرعي[59]. ومن هنا لا نستبعد أن يكون لعامل الزواج هذا الدور الحاسم في انضمام بوخوس الى يوغرطة، كما تجدر الإشارة أيضاً إلى الكلمة التي ألقاها بوخوس في محضر سيلا حيث قال:

«إنه إذا حمل السلاح، فليس من أجل الاعتداء، لكن من أجل الدفاع عن مملكته... وأنه لا يسمح لماريوس ، أو لأي كان بالاعتداء عليها وتخريبها...»[60].

تلك اذن هي العوامل التي تحكمت في التحالف النوميدي ـ الموريطاني ـ من وجهة نظرنا ـ وليست الرشوة التي اتخذها سالوستيوس وسيلة لمهاجمة النبلاء عامة واعضاء مجلس الشيوخ خاصة كلما أتيحت الفرصة لذلك.

هذه بعض المآخذ التي رأينا ضرورة الإشارة اليها عند سالوستيوس الذي لم يكن في هذا الكتاب «حرب يوغرطة» مؤرخا فحسب، بل كان أيضا سياسيا يدافع على مصالح طبقته ، وذلك بالكشف عن مفاسد طبقة النبلاء، والتأكيد على انتصار الفضيلة وصفاء الشعب، على نزعة الشر والاثم عند النبلاء، لدرجة أنه يوحي لنا أن الحرب التي خاضها النبلاء بشيء من الفتور لم تنته الا بفضل العامة التي عملت حتى أوصلت رجلا جديدا ـ ماريوس ـ رغما عن ارادة النبلاء، وهو الذي دفع الحرب الى نهايتها والقبض على يوغرطة، كما يمكننا القول أن الصراع بين النبلاء والعامة كان وراء اختيار سالوستيوس موضوع «حرب يوغرطة» بهدف ابراز الصراع القائم آنذاك في روما ودور العامة فيه، وهو الصراع الذي كانت له تأثيرات على العالم غير الروماني، وهي تأثيرات ناجمة ـ من وجهة نظرنا ـ عن اختلاف مصالح الطبقتين، حتى أنه يحق لنا أن نتساءل ان لم تكن هذه الحرب نتيجة لهذا الصراع، خاصة واننا عرفنا أن دخول يوغرطة كيرتا، الذي اعتبره سالوستيوس السبب المباشر لهذه الحرب، كان في صائفة 112 ق.م لكن الاعداد للحرب لم يبدأ الا في أواخر هذه السنة ، ولم تبدأ الحرب فعلا الا في ربيع سنة 111 ق.م.

ومما لا شك فيه ان سالوستيوس كان عارفا بأصول النزاع الطويل بين نوميديا وروما، والغريب أنه حضر المداولات التي كانت تطالب في سنة 50 ق.م، بالحاق نوميديا بالممتلكات الرومانية[61]، في وقت اعتبر فيه نوميديا ـ في كامل كتابه ـ جزءا من الممتلكات الرومانية من وجهة نظر أسلافه لسنة 110 ق.م.، فاذا كانت كذلك منذ سنة 110 أو قبلها فلماذا المطالبة بحظرها سنة 50 ق.م.،؟

ومع هذه المآخذ وغيرها والتي تدفعنا الى أخذ الكتاب بحذر شديد ينفرد سالوستيوس عن المؤرخين الرومان، باقلاعه عن طريقة الحوليات ، وتوجهه الى

كتابة بحوث مطولة في موضوع واحد، هذا إضافة الى الصياغة اللغوية الجيدة، وهو ما جعل تاكيتوس يلقبه بـ «المعلم».

الهوامش:

(1) PLUTARQUE, De la malignité d 'Herodote, dans : æuvres morales, t. 4, pp. 209-260.

(2) جورج سارتون، تاريخ العلم، الجزء الثاني، ص 158، دار المعارف، ط 2 1970.

(3) سالوستيوس، كاتيلينا، 3.

(4) المصدر نفسه.

(5) جرت العادة في روما أن العودة الى مجلس الشيوخ بالنسبة لضحايا صرامة المراقبين أن يكلفوا بمهام أدنى من التي كلفوا بها سابقا أو مساوية لها. مثل هذه الحالة التي عين فيها بنفس المنصب للمرة الثانية.

(6) Dion Cassius, XLIII, 9.

(7) Of. Richard (F.), p. 14 de l'introduction de sa trad. de la conjuration de catilina et la guerre de JUGURTHA, éd. G.F., 1968.

(8) سالوستيوس. (حرب يوغرطة) 3.

(9) يقصد في الحالة الأولى الارستقراطية وفي الثانية قيصر.

(9) مكرر – سالوستيوس. حرب يوغرطة، 3.

(10) نفسه. كاتيلينا، 3.

(11) سالوستيوس. حرب يوغرطة، 4.

(12) نفسه. كاتيلينا، 3.

(13) نفسه. حرب يوغرطة، 4.

(14) نفسه. 3.

(15) نفسه. 3.

(16) نفسه. حرب يوغرطة، 3.

(17) نفسه. 5.

(18) Cesar, Bell AF., II, 25 et Dion Cassius, XLI, 41, 3.

(19) أنظر الفقرة 31 من حرب يوغرطة على سبيل المثال، حيث يعمل سالوستيوس على ابراز دور ممثل العوام «كايوس مميوس» في الدفاع عن المصلحة العليا للبلاد والعدالة... والنبلاء يرتشون (الفقرتان 32-33 وفي غيرهما).

(20) سالوستيوس، حرب يوغرطة، 6.

(21) نفسه، 7.

(22) نفسه، 9.

(23) نفسه، 9.

(24) نفسه، 9.

(25) نفسه، 11.

(26) ستيفان قزال : (26) cf. Gsell, H.A.A.N. T 7. p. 140.

(27) نفسه، جـ 5، ص 52، رقم 1، وجـ 7 أ 141، رقم 1.

(28) أنظر فنطر (محمد) يوغرطة ص 121. دار التونسية للنشر 1970 م.

(29) سالوستيوس،

(30) cf. Gilbert-Charles Picard Civitas mactritana, in Carthago, t. 8 1957, pp. 7-75 (p. 39),

(31) Picard (G. ch.) op.cit., p. 40, N° 133.

(32) C.I.L., VIII, 1, p. 618.

(33) Vars (Ch.), Recherches archéologique sur Cirta (2è partie) (Organisation administrative de Cirta Rec. de Constantine, t. XXIX, 1894, pp. 281-534 (p. 311) et Gsell, Atlas archéologique de l'Algérie pl. 17, pp. 11-13.

(34) C.I.L., VIII, 1, N° 7990 et 7991.

(35) C.I.L., VIII, 1, 8210 et Gsell, Atlas, pl. 17, p. 3, N° 59.

(36) C.I.L., VIII, 1, 6710, 6711, 6958, 7097, 7098, 7125, 8195.

(37)

(38) سالوستيوس، حرب يوغرطة، 8.

(39) نفسه، 16.

(40) نفسه، 23.

(41) نفسه، 33-36.

(42) نفسه، حرب يوغرطة، 80.

(43) نفسه، 14.

(44) تحدث سالوستيوس عن هؤلاء التجار ودورهم في الدفاع عن كيرتا، حتى لا تسقط في يد يوغرطة، وربما كان هذا دفاعا في الواقع عن مصالحهم حتى لا تقع في يد يوغرطة، (أنظر الفقرة 26 من حرب يوغرطة لسالوستيوس).

(45) سالوستيوس، حرب يوغرطة، 22.

(46) نفسه، 28.

(47) نفسه.

(48) Carcopino (J.) Histoire de la republique Romanie, p. 294.

(49) تنص المعاهدة الموقعة بين بستيا ويوغرطة على سيادة يوغرطة على كامل نوميديا ما عدا مدينة لبدة التي طلبت في بداية الحرب الانفصال عن يوغرطة وفق ما أورده سالوستيوس في (حرب يوغرطة).

(50) سالوستيوس.حرب يوغرطة، 29.

(51) نفسه. 40.

(52) نفسه، 26.

(53) نفسه، 37_39.

(54) نفسه، 29.

(55) بعد انتهاء قنصليته اقره مجلس الشيوخ في منصبه بصفته قنصلا مساعدا (بروقنصلا). رغما عن إرادة العوام. الذين كانوا يساندون مساعده ماريوس على ما يذكر سالوستيوس (الفقرة 73 من حرب يوغرطة).

(56) Velleius Paterculus, II, 12.

(57) سالوستيوس. حرب يوغرطة، 80.

(58) نفسه.

(59) في هذا الإطار أيضا نذكر اعتبار سالوستايوس ليوغرطة أبنا غير شرعي لمصطبعل لانه ربما لم يكن من زوجته الأولى. فكان من عادة هؤلاء المؤرخين للاحداث بمنظور المعتقدات والتقاليد الرومانية. وهنا يكمن الخطأ.

(60) Sallustius, Bell. Jug. 102.

(61) وضع كيريون ممثل العامة لسنة 50 ق.م.. مشروعا يطالب فيه باسقاط يوبا الأول وحظر مملكته. أنظر قيصر. الحرب الافريقية الفقرة 2. 25. ديوم كاسيوس XLI . 3.41.

موقف المدرسة الغربية من تاريخ الجزائر في العصر الوسيط

عبد الحميد حاجيات

نظرا لسعة الموضوع، يقتصر حديثنا على معالجة بعض المؤرخين الفرنسيين لتاريخ الجزائر في العصر الوسيط، فيما يخص بعض القضايا الجوهرية.

يختلف موقف هؤلاء المؤرخين حسب انتمائهم السياسي أو العلمي. فبينما نجد نزعة تشويه تاريخ الجزائر جلية واضحة عند ضباط الجيش الفرنسي الذين اشتغلوا بالتاريخ، نلاحظ أن المؤرخين الجامعيين أظهروا الالتزام بالمنهجية العلمية، ولكنهم لم يسلموا من تأثير نظريات مؤرخي الاستعمار، أما رجال الدين المسيحيون، فإنهم لم يتخلصوا من نزعتهم البشرية، ولم ينسوا، في يوم من الأيام، عداء أسلافهم الصليبيين للإسلام.

أما الطرق التي استعملها المؤرخون الفرنسيون لتشويه تاريخ الجزائر، فهي متنوعة . والجدير بالملاحظة أن الكثير منهم اغتنموا فرصة قلة المعلومات بالنسبة للفترات القديمة، فسمحوا لأنفسهم بتقديم افتراضات، معتمد على أدلة واهية، وموجهة كلها نحو تمجيد حضارة اليونان والرومان، واستنقاص الإسلام والعرب.

ومن الطرق التي انتهجها المؤرخون الغربيون، الاعتماد على المصادر العربية القديمة، وقبول كل ما ورد فيها من قصص وأساطير، واحلال ذلك محل الحقيقة